الحملة الصهيونية المسعورة

على إدوارد سعيد

منذ متى؟!.. ولماذا؟!

نبذة عن ادوارد سعيد:

لا نعتقد أن في أميركا وأوروبا والوطن العربي أحداً من كبار المفكرين أو أعلام المثقفين، أو حتى القراء المتابعين الجادين لم يقرأ شيئاً لإدوارد سعيد، أو يعرف ولو بعضاً من خلاصات فكره العميق الواسع.. فادوارد سعيد العربي الفلسطيني. وأستاذ الأدب الإنكليزي المقارن في جامعة كولومبيا نيويورك، ليس فقط أحد المثورين الأفذاذ لحقول النقد الأدبي والعلوم الإنسانية والدراسات المتعلقة بالأدب المقارن، بل هو أساساً أبرز من شرّحوا الصيغة الأيديولوجية /المعرفية الغربية لعلاقات الغرب الاستعماري النهاب بالشرق/ موضوع الاستعمار والنهب- مع توسيع مفهوم كلمة الشرق لتشمل جميع أقطار العالم غير العربي-وذلك في كتابه الهام والبانورامي الشامل: (الاستشراق) الذي صدر بالإنكليزية للمرة الأولى عام ١٩٧٩ وصدرت ترجمته إلى العربية عام ١٩٨١، ثم استكمل بسط ما رآه غير مكتمل في كتابه ذاك بكتاب آخر صدرت طبعته الأولى بالإنكليزية عام ١٩٩٣ وصدرت الطبعة الأولى من ترجمته العربية عام ١٩٩٧ وهو كتاب (الثقافة والإمبريالية) والكتابان

بترجمة كمال أبو ديب أستاذ كرسي العربية في جامعة لندن.

وفي (الثقافة الإمبريالية) كشف إدوارد سعيد عن "التواطؤ الكلي والتشابك الحميمي بين الإمبريالية والثقافة التي أنتجتها مجتمعاتها. ولكنه يتجاوز هذا ليكشف أبعاداً مقموعة للثورة ضد السيطرة الإمبريالية في جميع بقاع العالم غير الأوروبي، ويوجه نقده أيضاً إلى الاستعلائية المضادة الممثلة في القومية الشوفينية والأصولية ونظريات الصفاء العرقي أو الثقافي"/ عن كلمة غلاف الطبعة العربية/ والأهم من هذا كله- بالنسبة لنا نحن العرب- أنه أكثر المدافعين صلابة في أميركا عن القضية الفلسطينية، ومن أشد المعارضين للتنازلات العرفاتية في سبيل ما يسمى (السلطة الوطنية الفلسطينية!) التي كانت نتيجة للاتفاق المخزي في أوسلو، أو بالأحرى: (لصفقة أوسلو) الاستسلامية.

٢-*خلفيات الحملة المسعورة على إدوارد سعيد: تعرض كتاب (الاستشراق) لهجمة كبيرة عليه من قبل مجموعة ممن يشتغلون بالاستشراق في الغرب وعلى رأسهم الصهيوني المعروف برنارد لويس الذي يقول ادوارد سعيد عنه في إحدى مقالاته عام ١٩٨٣ بسخرية وتهكم: (لا أحد في نظري يفوق برنارد لويس الذي تحتاج مآثره السياسية الصرفة إلى زمن أكبر من قيمتها الفعلية.. وفي سلسلة من المقالات وكتاب واحد ضعيف على نحو خاص "١٩٨٢" انهمك لويس في الرد على حجتي، وألح على أن البحث الغربي عن المعرفة حول المجتمعات الأخرى كان فريداً وأن دافعه كان الفضول المحض وأن المسلمين -بالمقابل- لم يكونوا قادرين أو مهتمين بحيازة المعرفة عن أوروبا، وكأن المعرفة عن أوروبا هي المعيار الوحيد المقبول لضمان المعرفة الحقة!*

وحجج لويس تقدم بوصفها نابعة من حياد الباحث غير المسيس، في حين أنه تحول من جهة ثانية إلى سلطة مسخرة لصالح الحملات الصليبية المناهضة للإسلام والمناهضة للعرب ومسخرة لخدمة الصهيونية وللحرب الباردة التي تنفذ بحمية متلفعة بمسحة تمدن ذات صلة واهية بذلك "العلم" الذي يزعم أنه حامل لوائه) ص/ ٤٣ من "تعقيب على الاستشراق"- ترجمة صبحي حديدي/ ثم يعرض سعيد لمستشرق آخر ليس أقل نفاقاً من برنارد لويس، وإن يكن أقل خبرة، هو دانييل بايبس في كتابه (على درب الله: الإسلام والسياسة) ١٩٨٣ وهو موضوع كلياً حسب إدوارد سعيد ليس في خدمة المعرفة بل في (خدمة دولة معتدية وتدخلية هي الولايات المتحدة) وبعد تفنيد عاجل لما في هذا الكتاب من افتراءات على الإسلام والعرب والمسلمين يعود خطفاً -من جديد- إلى الصهيوني برنارد لويس ليصفه بالوقاحة والتزييف المعرفي: (فصل الاستشراق عن مئتي سنة من التشارك مع الإمبريالية الأوروبية). ثم يؤكد إدوارد سعيد على أن أحد العنصرين الهامين المسببين للهجوم عليه وعلى كتابه (الاستشراق هو موقفه من القضية الفلسطينية والمواجهة المحتومة مع الصهيونية.. فقد كانت – أي القضية الفلسطينية- في أساس معظم العداء الذي قوبل به تحليلي النقدي للاستشراق) ص٤٦ ويشير تالياً إلى أن نقاده من المستشرقين وجدوا في ذلك التحليل (فرصة سانحة لهم لكي يدافعوا عن الصهيونية. ويدعموا إسرائيل ويشنوا الهجمات على الحركة الوطنية -الفلسطينية.. لأن الاحتلال الإسرائيلي للضفة – الغربية وقطاع غزة وتدمير المجتمع الفلسطيني والهجوم الصهيوني الثابت على الهوية القومية الفلسطينية تمت بوحي من المستشرقين وعلى يدهم، كما

لاحظ المعلق الإسرائيلي داني روبنشتاين.. واليوم فإن الحركة القومية اليهودية هي التي تنتج كادر المسؤولين الاستعماريين، وأطروحاتهم الأيديولوجية عن الذهن الإسلامي أو العربي هي التي تطبق في إدارة العرب الفلسطينيين، وهم أقلية مقهورة ضمن الديموقراطية الأوروبية البيضاء التي تدعى إسرائيل) ص٤٧.

وإذاً فنحن هنا أمام سر الحملة الشرسة الأخيرة للصهيونية على إدوار سعيد، الذي يواجه الغرب الإمبريالي والصهيونية معاً بهذه المقدرة المعرفية العالية الدؤوب وبهذه الروح القومية والوطنية الصلبة، ولذلك ليس غريباً أن يشارك العرفاتيون بتلك الحملة الأخيرة.. فالمطلوب –على ما يبدو– تصفية هذا العقل الذي يبدو متفرداً وفريداً بين سائر المفكرين العرب من حيث شموليته ودقته التحليلية والاستنتاجية، وصلابة التزامه بعيداً عن العاطفية والإنشائية الهاذرة.

٣–تفصيل موجز عن الحملة الأخيرة للصهاينة عليه:
أوردت أكثر من صحيفة عربية نص المقال الذي كتبه إدوارد سعيد موضحاً طبيعة تلك الحملة/ اعتمدنا هنا النص المنشور في جريدة الحياة يوم السبت ٢٨ آب ١٩٩٩/ حيث قال هذا المفكر الكبير إن مقالاً نشر أخيراً في "كومنتري" وهي مجلة شهرية يهودية صغيرة محافظة متطرفة (كرس لشن هجوم على حياتي وسيرتي عبر الادعاء بأنني لست فلسطينياً وأنني لم أعش أبداً في فلسطين، وأن عائلتي لم تطرد من فلسطين في ١٩٤٨ وهذا ثالث هجوم من نوعه تشنه عليّ كومنتري خلال عشرين سنة.. كان الهجوم الأول مقالاً نقدياً مطولاً جداً في ١٩٨١ تناول كتابي (قضية فلسطين) والثاني مقالاً طائشاً في ١٩٨٨ أو ١٩٨٩

بعنوان "بروفيسور الإرهاب"، أما الثالث فهو هذا المقال لكاتب اسمه حستوس فاينر. وهو إسرائيلي يدعي أنه يعمل لمركز بحوث يميني مغمور في القدس) وهذا المقال يزعم فيه صاحبه أن السيرة الذاتية لإداورد سعيد والتي ستصدر الشهر المقبل بعنوان (الذي بلا مكان) هي سيرة غير صحيحة، وأنه -أي الكاتب الصهيوني- أمضى ثلاث سنوات في البحث عن حياة إدوار سعيد وتحدث إلى حوالي ٨٠ من الشهود، واكتشف (تناقضات كثيرة فيما يقول إنها "روايتي" التي يلفقها بحسب ما يشاء تقريباً).

وبداية، يربط إدوارد سعيد الهجوم عليه، وعلى سيرته كفلسطيني بمسألة اقتراب المفاوضات حول الوضع النهائي بين الكيان الصهيوني والعرفاتيين، حيث (اليمين الصهيوني) يبذل الجهود لدعم مطالبه بكل فلسطين (في مواجهة سكان البلاد الأصليين: الفلسطينيين الذين شردوا كشعب بكامله في ١٩٤٨) هنا بدل "شعب" تذكر كلمة (أمة) وقد يعود ذلك إلى سوء الترجمة، أو إلى غلطة من ادوارد سعيد، إن كان كتب توضيحه بالعربية! وما أظن الأمر كذلك!!

وبشأن تمويل هذا الهجوم عليه يقول مفكرنا الكبير: (وقد يبدو أمراً مثيراً للدهشة أن يحصل – أي الكويتب الصهيوني فاينر – على تمويل لهذا المشروع، ولو أنه يتجنب بلباقة الإفصاح عن الدافع وحجم الدعم المالي ومصدره.

وأثار مقاله –والفضل في ذلك يعود إلى صحيفة دايلي تلغراف المعروفة بمواقفها الموالية بقوة للصهيونية – اهتمام الصحافة العالمية التي دأبت على الاتصال بي للحصول على

تعليق ورد: إنه جزء من قدر الفلسطينيين أن يتعين على المرء دائماً أن يثبت وجوده وتاريخه!).

وبعد أن يدحض إدوارد سعيد افتراءات الصهيوني فاينر ويصحح ما يجب تصحيحه حول كونه فلسطينياً وصاحب موقف غير مساوم يخلص إلى النتيجة الجوهرية التالية:

(كنت هدفاً لكثير من أمثال هذه التهجمات في السابق. والهدف من محاولة فاينر هذه هو أنها قد تفيد كوسيلة للتشكيك بكل مطالب الفلسطينيين في العودة والتعويض.. كما يخفي فاينر عنصرية "قانون العودة" الإسرائيلي الذي يسمح لأي يهودي في أي مكان في الهجرة إلى إسرائيل بينما لا يملك هذا الحق أي فلسطيني ولو كان مولوداً هناك. فإذا كان إدوارد سعيد كاذباً، بحسب مجادلة كهذه، فكيف يمكن تصديق جميع أولئك الفلاحين الذين يقولون إنهم شردوا من أراضيهم؟! الحجة التي يستند إليها الليكود وفاينر هي أن ملكية الأراضي كلها تعود إلى شعب إسرائيل التي منحه إياها الله!.. وتبعاً لذلك فإن جميع المطالبين الآخرين هم مراوغون ومدّعون كاذبون)!

وهكذا يرتبط الخاص – أي الهجوم على إدوارد سعيد– بالعام الذي هو جذر وجوهر القضية الفلسطينية. ويعيد الصهاينة –عبر فاينر وأمثاله– جهازهم المفاهيمي التلمودي إلى (الشغل)!

وحقيقة ليس هذا الـ "فاينر" أكثر من مدّعٍ حاول مثل آخرين كثيرين قبله أن يصور موضوع تشريد الفلسطينيين كرواية أيديولوجية!.. كان هذا موضوعاً ثابتاً "لمعلومات!" الصهاينة منذ الثلاثينيات.

هذا هو ملخص الحملة الصهيونية الجديدة على المفكر

العربي الفلسطيني الذي أبى أن يتواطأ مع الصهاينة والغرب المتصهين أو أن يصمت على الأقل!

ورغم أن كثيرين من (المفكرين) و(الكتاب) و(الشعراء) العرب يعيشون في ذلك الغرب: في أوروبا أو في أميركا، ويدرسون في جامعاتها فإن أحداً منهم لم تثر ضده مثل هذه الحملة.. لا بل إنهم غالباً يعاملون بكثير من التكريم والطنطنة رغم أن بعضهم قد يكتب إنشاء أيديولوجيا جميلاً عن فلسطين وعن تحرر العرب الذي لا بد من أن يمس طرف الصهيونية بهذا القدر أو ذاك.. فلماذا إذاً إدوارد سعيد الآن –وقبلاً–دون سواه؟!

٤–تصورات للأسباب العميقة:

مع الاحترام لتفسيرات إدوارد سعيد كما لخصناها في توضيحه، فإننا نرى أن أسباب هذه الحملة عليه وأسباب ما سبقها من حملات، ترتبط بما يلي:

إدوارد سعيد هو وحده الذي جازف تلك المجازفة المعرفية الكبرى بتشريح البنيان الأيديولوجي لمركزية الغرب الثقافي في كتابيه الفريدين: (الاستشراق) و(الثقافة والإمبريالية) تشريحاً صائباً وكاشفاً دون أية مراوغة، وبشمولية دقيقة ومتماسكة.

إدوارد سعيد– بناء على ذلك– هو وحده الذي يقترح صيغاً معرفية فعالة لتخلص العرب وسواهم من بقية الشعوب المنهوبة من (الشرقنة) و(التغربن) اللذين استقرا في وعيهم وفي أدائهم التربوي والتعليمي، وبالتالي فهو –عبر ذلك– يستحثهم على إعادة صناعة وعيهم للعالم وللحضارة صناعة مجدية، ودونما

(أمراض) منقولة بالعدوى من الآخر).

تجد الصهيونية نفسها بين هذين الحدين عرضية للتعرية الشاملة والخطرة عليها في حال أن العرب وغيرهم من الشعوب المغلوبة المنهوبة قد استوعبوا (الدرس المنهجي) الفكري والمعرفي الذي قدمه إدوارد سعيد وبدؤوا الأخذ بما يناسب أوضاعهم من مقترحاته.. فالصهيونية لا يزال وجودها مرتبطاً بهيمنة الغرب/ وأميركا اليوم خصوصاً/ وهيمنة هذا الغرب مرتبطة ببقاء الشرق مشرقناً أو مغربناً، رغم كل مظاهر القوة المالية والتقنية والعسكرية.

الحرب إذاً على إدوارد سعيد– وعلى العالم المنهوب برمته – هي حرب معرفية تدور في مستويين: مستوى معرفة حقيقية (الآخر) ومعرفة أيديولوجيته بدقة، ومستوى معرفة (الذات التابعة) ومعرفة الطريق لخلاصها من التبعية بعيداً عن الإنشاء الدوغمائي التقليدي.

ولأن إدوارد سعيد قد أنجز الخطوة –أو الخطوات– الأولى الصحيحة لذلك فهو إذاً قد أدار (دفة تلك الحرب) في الاتجاه الصحيح.. ولذلك وجب تدميره قبل أن يستفحل أمر نمط تفكيره، في وقت يبدو فيه العرب عموماً كأنما قد أداروا ظهورهم لكل تفكير مستقبلي سليم. إن ما يبدو هو أن إدوارد سعيد مطلوب صهيونياً ليدفع نفسه ثمناً لكل ما فعله في حياته.. فهل للعرب أن يلاحظوا ماذا يعني الفكر السليم والوعي الصحيح للذات والعالم في هذه الحقبة الحضارية الحرجة؟! وأين هو ذلك التحرك المجدي للإعلام العربي أم إنه صار إعلاماً يهمه ألا يكون هناك فكر مفيد على الإطلاق؟!